شعر الاسر بين ابي فراس الحمداني ٣٥٧ والمعتمد بن عباد ت ٤٨٨ هـ دراسة فنية موازنة

الدكتورة سوسن صائب المعاضيدي
كلية التربية / أبن الرشد

مقدمة :

لا بدّ لي من تعريف قارئ هذا البحث بالشاعرين المشهورين اللذين سأتناولهما بالدراسة فأما ابو فراس الحمدانيّ فهو (الحارث بن سعيد بن حمدان التغلبي الربعي الحمدانيّ) أمير وشاعر وفارس[١].

عرّف به الثعالبي في يتيمة الدهر فقال : (كان فرد دهره، وشمس عصره أدباً وفضلاً وكرماً ونبلاً ومجداً وبلاغة، وبراعة، وفروسية وشعره مشهور سائر بين الحسن والجودة والسهولة والجزالة والعذوبة والفخامة والحلاوة والمتانة، ومعه رواء الطبع وسمة الظرف وعزة الملك)[٢]. أبن عم سيف الدولة، وقد أسر في معركة حدثت بينه بين الروم وتم أفتداؤه بعد سنوات من أسره وكتب أروع قصائده التي تدعى الروميات في سنين أسره، توفي سنة ٣٥٧هـ[٣].

وهو شاعر (يقول الشعر أرضاءً لنفسه ولم يتخذ الشعر حرفة وشعره وجداني خالص يدور على فنين هما الفخر والغزل)[٤].

وأما المعتمد بن عباد فهو محمد بن عباد بن أسماعيل اللخميّ أشعر ملوك الأندلس على الأطلاق، وأكثرهم أهتماماً بالشعر ذكره أبن بسام في الذخيرة فقال: (كان ذو الوزارتين أبو القاسم محمد بن أسماعيل بن عباد .... فمن له في العلم باع ولذوي المعارف عنده بها سوق وأرتفاع ، وكان يشارك الشعراء والبلغاء في صنعة الشعر وحوك البلاغة بسطاً لهم وأقامة لهممهم)[٥].

لعلّ من الصفات المهمة التي تجمع بين أمير بني حمدان أبي فراس الحمداني ت ٣٥٧هـ وأمير بني عباد المعتمد بن عباد ت ٤٨٨هـ أن كليهما فارس خانته الأيام فوقع كل واحد منهما في الأسر فأما ابو فراس فقد وقع في الأسر بعدما أثخن بالجراح في خرشنة، فأنتج ذلك شعراً رائعاً ضمنّه قصائد تجمع بين الحزن والكبرياء والجلد والصبر والمعاناة هذه القصائد أرسلها الى سيف الدولة الحمدانيّ والى أمّه، وشكى بها أسره، ورثى نفسه.

وأما المعتمد بن عباد، فقد أستعان بأمير المرابطين يوسف بن تاشفين فأنتهز الفرصة أبن تاشفين، وعزل أبن عباد وأخذه أسيراً الى (أغمات) فقال في ذلك شعراً ضمنّه كذلك رثاء لنفسه قد رأى بأم عينيه بناته يمشين في ثياب رثة بالية، فأثر هذا الأمر في نفسه تأثيراً كبيراً وراح يبكي ويذكر ذلك بشعر يفيض رقة وعاطفة.

المطلب الأول: معاناته في الأسر

لقداثخن ابو فراس الحمدانيّ بالجراح بعد معركة جرت بينه وبين الروم فأخذ أسيراً، ومن هنا بدأت معاناته، فها هو ذا يشكو أسره ويشرح حاله باكياً بدموع سخية مدرارة، إلا أن الناظر في شعر أبي فراس يجد روح التحدي والكبرياء واضحة في هذا الشعر.

وقد أشار أحد الدارسين أن: (تلك البدائع التي عرفت في تاريخ الأدب العربيّ بأسم "الروميات" وهو تصور نفسية أبي فراس أدق تصوير، وتقفنا على تقلبه بين امواج الرجاء واليأس، الرجاء في العودة الى الوطن الذي وقف حياته عليه، واليأس من رؤية هذا الوطن كرة ثانية وبقائه رهن الأسر والقيد، وتعكس لنا زفرات الرجاء واليأس ووقدة العواطف الثائرة، والنفس الأبية والحنين الجارف الذي كان يتدفق من روح شاعرنا ليؤلف لحنا فيه قصة الشاعر)[٦].

وقد أمتلأ ديوان الشاعر تلك القصائد التي أشار فيها ابو فراس الى ان له في الشام أحباباً لم يجد من يعوض فقدانه منهم فيقول:-

انّ في ألأسر لصباً دمعه في القلب صبُّ
هو في الروم مقيمٌ وله في الشام قلبُ
مستجداً لم يصادفْ عوضاً ممن يحبُّ[٧]

ويرسل الشاعرالى غلامه "منصور" مقطوعة ضمنّها شكوى الأسر إلا اننا نجد في مقطوعته هذه مطاولةً وقدرةً على الصبر فيقول

أرثِ لصبَّ فيك قد زدتَه على بلايا أسرِه أسرا
قد عدم الدنيا ولذّاتها لكنّه ماعدم الصبرا
فهو أسيرُ الجسم في بلدةٍ وهو أسيرُ القلب في أخرى(٨)

أن قدرة أبي فراس على التحمل رائعة، بل أن فيها دعوةً للصبر مع يقين أيمانيَّ فذّ بأنّ الله عز وجل سيفتح له فتحاً، ويعينه على ما أصابه، فهو يمرّ بخرشنة أسيراً فتتراءى أمام عينيه ذكريات غزواته، ولطالما أغار هذا الفارس الأسير على تلك البلاد وأبدى شجاعة فائقة وهو اليوم أسيرٌ مغلول إذ يقول:

أن زرت "خرشنة" أسيراً فلكم أحطتُ بها مُغيراً
ولقد رأيت النار تن تهب المنازل والقصورا
ولقد رأيت السبي يجـ لب نحونا حواً، وحورا
نختار منه الغادة الـ حسناء والظبي الغريرا
ان طال ليلي في ذرا ك فقد نعمتُ به قصيرا
ولئن لقيت الحُزن فيـ ك فقد لقيت بك السرورا
ولئن رميت بحادثٍ فلألفينَّ له صبورا
صبراً لعل الله يفـ تَحُ بعده فتحاً يسيرا(٩)

لم تفارق روح الكبرياء والفخر نفسية أبي فراس طيلة مدة أسره فهو يمضي في تأكيد ان لا محل لنا فهو اما صدور المجالس او القبور فهو يقول :

من كان مثلي لم يبتْ إلا أسيراً أو أميراً
ليستْ تحلُّ سراتُنا ألا الصدور او القبور(١٠)

على أن القصيدة التي تظهر فيها معاناة أبي فراس واضحة للقارئ فهي قصيدة " آراك عصي الدمع"، وقد أشار محقق ديوانه " سامي الدهان" الى ان هذه القصيدة أشهر ما عرف لأبي فراس، وقد تناولتها كثير من كتب الأدب وفيها يقول:

أراك عصيَّ الدمع شيمتك الصبرُ أما للهوى نهيٌ عليك ولا أمرُ
بلى أنا مشتاقٌ وعندي لوعةٌ ولكنّ مثلي لا يذاع له سرُّ(١١)

اذا الليل أضواني بسطتْ يد الهوى		وأذللت دمعاً من خلائقه الكبر
تكاد تضيءُ النار بين جوانحي		اذا هي اذكتها الصبابة والفكرُ
معللتي بالوصل والموتُ دونه		اذا متُّ ظمآناً فلا نزل القطرُ(١٢)

ان المتامل يرى ان ابا فراس بداها متغزلا وقد استمر في هذا الغزل بابيات تقارب الواحد والعشرين بيتا .

وقد ذكر الدكتور الشكعه أن هذه القصيدة (أروع وأبرع ما أنشد أبو فراس في أسره بل اروع ما قال في شعره تلك القصيدة الرائية التي منحها ذوب نفسه وصب فيها حرّ عاطفته فمزج بين الغزل والفخر بما لم يستطع شاعر آخر أن يلحق به في جمالها ورقتها فيصور فيها عشق الأمراء الذي يلازمه الكبر والعزة بحيث لا يسف في عشقه ولا ينزل في حبه الى مستوى العاشقين من العامة)(١٣).

والناظر يجد فيها غزل أبي فراس رقيقاً، دافئاً شاكياً ألم الهجر والفراق حتى أذا أستوفى هذا الغزل عاد الى فخره أذ يقول:

فلا تنكريني يا أبنة العمَّ، أنّه
ليعرف من أنكرته: البدُوالحضرُ

ولا تنكريني، أنني غير منكرٍ
أذا زلت الأقدام، وأستنزل النصرُ

وأني لجرّارٌ لكل كتيبةٍ
معوَّدةٍ أن لا يُخلَّ بها النصر(١٤)

فأظمأ حتى ترتوي البيض والقنا
وأسغب حتى يشبع الذئبُ والنسرُ(١٥)

ويذكر بعضاً من صفات فروسيته فهو ينذر عدوه قبل لقائه ولا ترهبه الديار المنيعة، وهو يحفظ عرض المرأة التي أستجارت به غير كاشف لها ستراً في قوله:

ولا أصبح الحيّ الخلوف بغارةٍ
ولا الجيش ما لم تأته قبلي النذرُ

و ياربَّ دارٍ لم تخفني منيعةً
طلعت عليها بالردى أنا والفجرُ

وحيٍّ رددت الخيل حتى ملكته
هزيماً وردتني البراقع و الخمرُ

و ساحبة الأذيال نحوي لقيتها
فلم يلقها جهم اللقاءِ و لا و عرُ

و هبت لها ما حازه الجيش كله
ورحتُ ولم يكشف لاثوابها سترُ(١٦)

ثم هو يذكر أسره مؤمناً بأنه قضاء نافذ حتى أذا نزل فلن يحتمي الأنسان منه ببر أو بحر في قوله:

أسرت وما صحبي بعزلٍ لدى الوغى
ولا فرسي مهرٌ ولا ربَّه غمرُ(١٧)*
ولكن أذا حُمَّ القضاء على أمريءٍ
فليس له برٌّ يقيه ولا بحرُ(١٨)

ويعقدُ حواراً مع أصحابه بعد أن قالو : ان لا ملاذ لنا في هذه الحرب فهو أما الفرار واما الموت فيرد عليهم أن أحلى الأمرين مرَّ في قوله

وقال أصيحابي : الفرارُ أو الردى
فقلت : هما أمران أحلاهما مُرَّ
ولكنني أمضي لما لا يعيبني
وحسبك من أمرين خيرهما الأسر
يقولون لي : بعت السلامة بالردى
فقلت : أما والله ما نالني خسرُ
هو الموت فأختر ما علا لك ذكره
فلم يمت الأنسان ما حيي الذكر(١٩)

ويتحدث عن أعدائه مفتخراً بنفسه ذاكراً أن ثيابه ملطخة بدمائهم وأن سيفه أندق نصله من كثرة الضرب فيهم في قوله:

يمنون أن خلوا ثيابي وأنما
عليَّ ثيابٌ من دمائهم حمر
وقائم سيفي فيهم أندق نصله
وأعقاب رمحي فيهم حطم الصدر
سيذكرني قومي أذا جدَّ جدَّهم
وفي الليلة الظلماء يفتقد البدُر
فأن عشت فالطعن الذي يعرفونه
وتلك القنا والبيض والضمرُ الشقرُ

أن أشعار أبي فراس لا تخلو من حكم بالغة تدلل على رقي فكري واضح وأيمان عقائدي لدى هذا الشاعر من مثل قوله:

وأن مت فالانسان لا بد ميت
وأن طالت الأيام وأنفسح العمر(٢٠)

ومما يعجبني شخصياً ويؤكد قوة شخصيته وروعة أفتخاره بقوله:

ونحن أناس لا توسط عندنا
لنا الصدرُ دون العالمين أو القبرُ
تهون علينا في المعالي نفوسنا
ومن خطب الحسناء لم يغلها المهرُ
أعزّ بني الدنيا وأعلى ذوي العلا
وأكرم من فوق التراب ولا فخر (٢١)

وقد علق الدكتور الشكعه على هذه القصيدة بقوله : (ويختم ابو فراس هذه القصيدة الرائعة فيحشد كل ما جاش في نفسه من أطراف الفخر ويجمع كل ما تصوره في نفسه وقومه من معاني العزة والمتعه بحيث لا ينبغي لواحد منهم أن يعيش الا سيداً فأما أن تكون له الصدارة وألا فالقبور أولى بهم وأكرم)(٢٢).

وقد أشار الدكتور الشكعه الى ان هذه القصيدة تحمل سمات الرمزية وان النقاد عدّوها ضرباً من الشعر الرمزي(٢٣).

وعقد ابو فراس حواراً بينه وبين حمامة وقفت تنوح على غصن شجرة وهو في الأسر فهي طليقة حزينة وهو مأسور مستبشر صابر وهو أولى منها بالنواح والبكاء ألا ان جلده وصبره يمنعه من البكاء في الحوادث وذاك في قوله:

أقول وقد ناحت بقربي حمامة
أيا جارتا هل بات حالك حالي
معاذ الهوى ما ذقت طارقه النوى
ولا خطرت منك الهموم ببالي(٢٤)
أتحمل محزون الفؤاد قوادمٌ
على غصنِ نائي المسافة عالِ
تعالي ترى روحاً لديَّ ضعيفةً
تردّدُ في جسم يعذّب بالِ

أيا جارتاً ما أنصف الدهر بيننا تعالي أقاسمك الهموم تعالي

أيضحك مأسورٌ وتبكي طليقة ويسكت محزون ويندب سالي

لقد كنت أولى بالدمع منك مقلةً ولكن دمعي في الحوادث غالي[٢٥]

ولاشك ان الطباق الذي عقده الشاعر في هذه القطعة يبين حاله وحال الحمامة يعلن وبلا أدنى ريب عن قدرة أبي فراس في تصوير جلده وصبره ومطاولته وروعة تحمله.

المطلب الثاني : ذكر أسرته وأصحابه

يتذكر ابو فراس الحمداني والدته وأبنتيه فيرسل من سجنه أشعاراً يبدو فيها شاكياً مع أنه يظهر شجاعة فائقة. فهو غير هياب من المنايا لولا أمّهُ التي يخشى عليها ان تضام أذ يقول:

لولا العجوز بمنبج ما خفتُ أسباب المنيّه
ولكان لي عمّا سألـ ـتُ من الفدا نفسٌ أبيه
لكن أردتُ مرادها ولو أنجذبت الى الدنيّه
وأرى محاماتي عليـ ـها أن تضامُ من الحميه[٢٦]

ثم يذهب الى القول أن الحوادث لا تدفع بنيةٍ جميلة لأن قضاء الله تعالى نافذٌ في البشر مؤكداً أن الصبر يأتي لمن يصاب ببلية على قدر أبتلائه فيقول:

لو كان يدفع حادثٌ أو طارقٌ بجميل نيّه
لم تطرق نوب الحوا دث أرض هاتيك التقيّه
لكن قضاء الله والـ أحكام تنفذ في البريّه
والصبر يأتي كل ذي رُزءٍ على قدر الرزيّه[٢٧]

ويخاطب الشاعر أمه ان لا تحزن لفقده، وان تضع ثقتها بالله عز وجل أذ انه جلّ وعلا لطيف بعباده وهو القادر على جلاء الحوادث ويكفي عباده البلايا موصياً بعد ذلك أياها بالصبر فيقول:

يا أمتا لا تحزني وثقي بفضل الله فيهّ
يا أمتا لا تيأسي لله الطافٌ خفيّه
كم حادث عنا جلا هُ، وكم كفانا من بليّه
أوصيك بالصبر الجميـ ـل! فأنه خيرُ الوصيه[٢٨]

وفي موضع آخر يدعو والدته الى ألتزام الصبر فأنه طريق الى الخير وهو مما يؤجر عليه الأنسان الملتزم الصابر فيقول:

فيا أمّتا لا تعدمي الصبر، أنه
الى الخير والنجح القريب رسولُ
ويا أمّتا لا تحبطي الأجر أنه
على قدر الصبر الجميل جزيلُ
ويا أمّتا، صبراً فكل ملمّةٍ
تجلي على علاّتها وتزولُ[٢٩]

ويسترجع أبو فراس التراث العربيّ الأسلاميّ مستلهماً منه عبراً ومواعظ كي يحث أمه على الصبر داعياً أياها الى الأستفادة من دروس تراثه الخالد فيقول:

أمالك في "ذات النطاقين" أسوةٌ
بـ "مكة" والحربُ العوانُ تجولُ

أراد أبنها أخذ الأمان فلم تجب
وتعلم علماً أنّه لقتيلُ

تأسي ! كفاك الله ما تحذرينه
فقد غال هذا الناس قبلك غولُ(٣٠)

ويذكرها بعمه النبي (صلى الله عليه وسلم) "صفية بنت عبد المطلب" يوم فقدت حمزة (رضي الله عنه) في أُحد فبكته، وحزنت عليه إلا ان الحزن لم يرجع حمزة أليها:

وكوني كما كانت بـ (أحد) صفية
ولم يشف منها بالبكاء غليلُ

ولو ردَّ يوماً، حمزة الخير حُزنها
اذا ما علتها رنةٌ وعويلُ(٣١)

وكعادته يمضي أبو فراس مفتخرا بنفسه وشجاعته مبيناً أنه لم يكن ذليلاً حتى في وقت أسره فيقول :

وما أثري يوم اللقاء مذممٌ
ولا موقفي عند ألأسار ذليلُ

لقيت نجوم الافق وهي صوارمٌ
وخضت سواد الليل وهي خيولُ

ولم أرعَ للنفس الكريمة خلةً
عشية لم يعطفْ عليّ خليلُ(٣٢)

ولكن لقيت الموت حتى تركتها
وفيها وفي حدَّ الحسام فلولُ(٣٣)

وتبدو نفس هذا الفارس الأسير مؤمنةً بقضاء الله تعالى وقدره فمن يعزه الله لن يذل، ومن لم ينصره الله فلن يلق له ناصراً فيقول:

ومن لم يوق الله فهو ممزّقٌ

ومن لم يعزّ الله فهو ذليلُ

اذا ما وقاك الله أمراً تخافه

فمالك مما تتقيه مقيلُ

وان هو لم ينصرك لم تلق ناصراً

وان جل أنصار وعزّ قبيلُ

وأن رجائيه وظني بفضله

على قبح ما قدمته لجميلُ(٣٤)

على أن القصيدة التي تبين معاناة أمه مثلما تخيلها الشاعر هي قصيدة " أيا أمّ الأسير" وهي تضاهي في رهافة حسها، ودقة تصويرها قصيدة "اراك عصي الدمع" فهذه القصيدة قالها في رثاء والدته بعد أن ماتت وهو في الأسر، فدعا لها الله ان يسقيها الغيث شارحاً في هذه القصيدة حاله بعد وفاتها فيقول:

أيا أمَّ الأسير سقاكِ غيثٌ بكره منك ما لقي الأسيرُ

أيا أمَّ الأسير سقاكِ غيثٌ تحيَّر لا يقيمُ ولا يسيرُ

أيا أمَّ الأسير سقاكِ غيثٌ الى من بالفدا يأتي البشيرُ

أيا أم الأسير لمن تُربى وقدْ متَّ الذوائب والشعور

أذا أبنك سار في برٍّ وبحر فمن يدعو له أو يستجيرُ

حرامٌ أن يبيت قرير عينٍ ولؤم أن يلمَّ به السرور

وقد ذقت المنايا والرزايا ولا ولدٌ، لديك ولا عشيرُ(٣٥)

ثم يمضي الشاعر ليعدد صفات أمه وما تتمتع به من تقوى وصلاح فهي صائمة في شدة الهجير، قائمة ليلها، وهي مجيرة للخائفين، مساعدة للمساكين، وحافظة للأسرار أذ يقول:

ليبككِ كل يوم صمت فيه مصابرة وقد حمي الهجير

ليبككِ كل يوم قمت فيه الى أن يبتدي الفجرُ المنيرُ

ليبككِ كلَّ مضطهدٍ مخوفٍ أجريته، وقد قلَّ المجيرُ

ليبككِ كل مسكينٍ فقير أغثتيه وما في العظم زيرُ

أيا أمّاه كم همٍّ طويلٍ مضى بكٍ لم يكن منه نصيرُ

أيا أماه كم سرٍّ مصونٍ بقلبك مات ليس له ظهورُ(٣٦)

ويخاطب أمه داكراً أنها تركت فراغاً كبيراً في نفسه فألى من سيشتكي؟ والى من يناجي؟ ومن سيدعو له؟ فيقول:

أيا أماه كم بشرى بقربى أتتك ودونها الأجل القصير[٣٧]
الى من أشتكي ولمن اناجي اذا ضاقت بما فيها الصدور

بأي دعاء داعيةٍ أوقى؟ وبأي ضياء وجهٍ أستنيرُ
بمن يستدفع القدر الموفى بمن يستفتح الأمر العسيرُ؟
نسلى عنك أنا عن قليلٍ الى ما صرت في الأخرى نصيرُ[٣٨]

ثم هو يستذكر "حلب" وأهله فيها ويتشوق الى أطفاله واحبابه وهو في كل ذاك يصف أسره بروح حزينة باكيه:

لأيّكم أذكرُ؟ وفي أيكم أفكرُ
وكم لي على بلدتي بكاءٌ ومستعبرُ
ففي حلبٍ عدتّي وعزّي والمفخرُ
وفي "منج" من رضا هُ أنفسُ ما أدخرُ
ومن حبّه زلفةٌ يها يكرم المحشرُ
وأصبية كالفراخ أكبرهم أصغرُ[٣٩]

وأذ يتذكر أحبابه الذين عرفهم وهو بعد في مقتبل شبابه مبيناً أن حزنه عليهم باقٍ ودمعه جارٍ إلا انه يستر ذلك الحزن وتلك الدموع مكابرة وجلداً وخوفاً من أن يقول واش : أنّه لا يطيق الصبر:

فحزني لا ينقضي ودمعي ما يفرُ
وما هذه أدمعي ولا ذا الذي أضمرُ
ولكن أداري الدموع وأستر ما أسترُ
مخافة قول الوشا ةِ : مثلك لا يصبرُ[٤٠]

وها هو ذا في شدة صبره وعظيم بلائه ومآسيه يستذكر الباري عز وجل فهو القادر على كشف البلاء والأحسان وغفران الذنوب

أيا غفلتا كيف لا أرجي الذي أحذرُ
وماذا القنوط الذي أراه فأستشعرُ

أما من بلاني به على كشفه أقدرُ
بلي أن لي سيداً مواهبه أكثر
واني غزير الذنوب واحسانه أغزر
ذنوبي بها كثرةٌ وغفرانه أكثرُ
بذنبي أوردتني ومن فضلك المصدرُ(٤١)

أن دموع الأسر التي ذرفها هذا البطل الأسير لم تكن من ذلة الأسر وسوء المعاملة أنما اجدها –ومن خلال شعره- تنهمر حزناً على والدته تلك التي ماتت وهو بعيد عنها فخلفت في فؤاده لوعة تحترق وأسى باقياً وغصةً ملتهبة.

ويبدوا ابو فراس صابراً داعياً ابنته الى التجمل بالصبر فكل الناس راحلون.

أبنيتي لا تحزني كل الأنام الى الذهابِ
ابنتي صبراً جميلاً لاً للجليل من المصابِ
نوحي عليّ بحسرةٍ من خلف سترك والحجابِ
قول ياذا ناديتيني وعييتُ عن ردَّ الجوابِ
زين الشباب ابو فرا س لم يمتّع بالشبابِ(٤٢)

يشعر بمرارة الخيانة وعدم الوفاء والغدر فيرسل الى غلاميه (ضاف ومنصور) مقطوعة وفيها يقول :

ياخليلي بالشام أفيقا هل تحسان لي رفيقاً رفيقا
كثر الغدر والخيانة في النا س فما أن ارى صديقا صدوقا
قلّ أهل الوفاء وأتّبع النا س من الغدر والجفاء طريقاً
لا رعى الله ياخليلي دهراً فرّقتنا حروفه تفريقا
كنت مولاكما وما كنت ألا والداً محسناً وعمّا شفيقا(٤٣)

ويطلب ابو فراس من غلاميه ان يتذكرانه كلما كثر الغدر وأستفشت الخيانة ويذكر انه يتذكرهما باكياً في قوله:

فأذكراني وكيف لا تذكراني كلما أستخون الصديق الصدوقا
بتُّ أبكيكما وأن عجيباً أن يبيت الأسير يبكي الطليقا(٤٤)

وقد مزج ابو فراس في قصائده الأسر هذه بين الصبر والفخر والأستهزاء من عدوّه وذلك في قصيدته التي مطلعها:

يعز على الأحبة بالشام حبيبٌ بات ممنوع المنام(٤٥)

وفي هذه القصيدة هجاء مرٌّ لاذع لأعدائه مبينا ما قد لا قاه في أسره دون أن يبتعد عن الفخر بنفسه في قوله :

لهم خلق الحمير فلست تلقى فتى منهم يسيرُ بلا حزام
يريغون العيوب وأعجزتهم وأي العيب يوجد في الحسام
أصعب خطة وأجل أمراً مجالسة اللئام على الكرام
أناجي كل طبلٍ هرثميٍّ عريض الذقن بزاقِ الكلام
أبيت مبرءاً من كل عيبٍ وأصبح سالماً من كل ذام
اذا ظفرت يداك ظفرت منه بلا نابي العزاءِ ولا كهام
ومن لقي الذي لا قيت هانت عليه مواردُ الموت الزؤام(٤٦)

وهو يلام على تعرضه للموت إلا انه يصم آذانه عن ذلك اللوم اعتقاده في هذا ايمان قاطع يأن بني الدنيا لا بد ان يموتوا حتى وان عمرّوا ألف عامٍ وذلك في قوله :

ألام على التعرض للمنايا ولي سمع أصمُّ عن الملام
ولو أني رجوت به بقاءً لمكنت العواذل من زمامي
ولو كانوا وكنت الى حمام لقيت بمهجتي حرّ الحمام

وها هو ذا يطلب من أحبابه وأصحابه ان يتذكروه اذا مالاج برقٌ شآمي وهو عند ذاك يبعث سلامه الى هؤلاء الأحبة في قوله

لهم خلق الحمير فلست تلقى فتى منهم يسيرُ بلا حزام
الا ياصحابي تذكراني اذا ما ؟؟؟؟ البرق الشآمي
اذا مالاح لي لمعان برقِ بعثت الى الأحبة بالسلام(٤٧)

وفي مقطوعة أخرى نجد أن معاناة هذا البطل الأسير لن تنتهي أّ نراه يشكو قوماً من أهله وخاصته كرهوا أو سمع أنهم كرهوا خلاصه من الأسرِ وفيهم يقول:

تمنيتم ان تفقدوني وأنما تمنيتم ان تفقدوا العزّ أصيدا

اما انا أعلى من تعدّون همةً؟ وان كنت أدنى من نعدّون مولدا
الى الله أشكو عصية من عشيرتي يسيئون لي بالقول غيباً ومشهدا
وان حاربوا كنت المحنَّ أمامهم وان ضربوا كنت المهند واليدا
وان ناب خطبٌ او ألتمت ملمةً جعلت لهم نفسي وما ملكت فدا(٤٨)

العاطفة الأبوية في شعر المعتمد بن عباد

وممن ذكر برقة العاطفة من شعراء الأندلس (المعتمد بن عبـاد) ت٤٨٨هـ وقد ظهر لنا ذلك في مواقف شتى عاشها هذا الملك الذي أستلب ملكُه/ وفُقد أبنـاؤه/ وأُخذ أسيراً الى (أغمات) فراح ينظر بعينيه ويستعيد ذكرياته ويسترجع ما آل اليـه الامر بعد ذاك الجاه العامر ، وبعد تلك السلطة وذاك التمكن، ومـا سـنذكره لاحقـاً يبين أبرز المواقف المؤثرة التي ظهرت في أشعار هذا الملك ألأسير.

المطلب الأول : وصف الحال

أن أستشعار الغربة وذلّ الأسر كان من أبرز ما نستشفه من أشعار المعتمد عقيب أسره، فها هو ذا يطلق زفره حرى من أعماق فارس مخذول وملك فقد سلطته فأخذ يصف ذلك اليوم المشؤوم قائلا:

لما تماسكت الدموع وتنبَّهَ القلب الصديعُ
قالوا : الخضوع سياسةٌ فليبدُ منك لهم الخضوعُ
والذّ من طعم الخضو ع على فمي السَّمُّ النقيعُ[٤٩]

ويصف يوم قتاله وأنه رمى بنفسه لنزال المعتدين إلا ان الأجل تأخر ثم يذكرّ الأخرين بأنه سائر على درب الأوائل من أجداده لأنه فرع منهم إذ يقول:

قد رمت يوم نزالهم ألا تحصنني الدروع
وبرزتُ ليس سوى القمي ص، عن الحشاشيٌّ دفوع
وبذلتُ نفسي كي يسي لً اذا يسيل بها النجيع
أجلي تأخر لم يكن بهواي ذلّي والخشوع
ما سرت قط الى القتا ل وكان أملي الرجوع
شيمُ الألي أنا منهم والأصل تتبعه الفروع[٥٠]

وقد وصف د.عمر الدقاق هذه الأبيات بقوله: (وقد أنطوت الأبيات على شعر ذاتي يتسم بالأصالة ويرصد مرارة التجربة، على الرغم من أن الشاعر لم يعد في مواقع القوة بعد أن فقد ملكه وغدا في أسوأ حال فانه يبدو رابط الجأش ثابت الجنان[٥١].

ويصف الدقاق القصيدة بأنها من الشعر الحماسي (الذي عرفه العرب وأتسم به بوجه خاص الشعراء الفرسان وهو من طبيعة أشعار عنترة وعمرو بن

معد يكرب وعمرو بن الأطنابة وقطريّ بن الفجاءة، ولعلها أقرب ما تكون في دلالتها ورصد مشاعر صاحبها لى شعر أبي فراس الحمداني في أسره .... تتسم القصيدة بنفس ملحمي خفيف تتسربل خلال معانيها القوية بتدفق وعذوبة من خلال طابع القصص المحبب)[٥٢].وهويرى أن الموت راحة من حياة شقية يظلَّ المرء فيها يعاني مرارة العناء والذلَ أذ يقول :

أليس الموت أروح من حياةٍ يطولُ على الشقي بها الشقاءُ
فمن بك من هواه لقاء حبَّ فأنَّ هواي من حتفي أللقاءُ
أرغبُ أن أعيش أرى بناتي عواري قد أضرَّ بها الحفاءُ
خوادم بنت من قد كان أعلى مراتبه –إذع أبدو- النداءُ[٥٣]

ويستذكر المعتمد ذلك المجد الزائل، والقصور التي فقدها في مملكته ومنها المبارك والثريا والزاهي والوحيد، ويذكر أبناءهُ مبيناً أن بين عباد ينسبون الى بني ماء السماء فيقول:

بكى المبارك في أثر أبن عباد بكى على أثر غزلانِ وآساد
بكت ثرياه لا غَمت كواكبها بمثل نوءِ الثريا الرائح الغادي
بكى الوحيدُ، بكى الزاهي وقبتهُ والنهر والتاج، كل ذله بادي
ماء السماء على أبنائه درٌ يالجة البحرِ دومي ذات أزبادِ[٥٤]

ومضى في قصيدة أخرى يذكر أيضاً قصوره، ويبين ذلة الأسر وحاله التي هو فيها مستذكراً أيامه الماضيات في قصيدة مطلعها:

غريبٌ بأرضِ المغربين أسيرُ سيبكي عليه منبرٌ وسريرُ[٥٥]

وفيها يقول :

سيبكيه في زاهيه والزاهر الندى وطلابه والعرف ثم نكيرُ
اذا قيل في أغمات قد مات جوده فما يرتجى للجود بعدُ نشورُ
مضى زمن والملك مستأنسٌ به وأصبح عنه اليوم وهو نفورُ
أذلّ بني ماء السماء زمانهم وذلَّ بني ماء السماء كثيرُ
فما ماؤها ألا بكاءٌ عليهم يفيض على الكباد منه بحورُ[٥٦]

ان وصف المعتمد لحاله لم يكن ليعتمد على ذكر بناته وأسره فحسب بل جاء ممتزجا بذكر الطبيعة سواء الطبيعية منها أو الصناعية فقد ذكر الكواكب والبحر والنهر وذكر القصور التي سماها بأسمائها وقد جاء ذلك كله في نغم حزين

مؤثر، حتى اذا اوحشته غياهب السجون وآلمته القيود بأثقالها فضلاً عن ذل الأسر فما كان منه وقد أعتلت صحته وأحسّ بدنوّ أجله ألا ان يرثي نفسه قائلاً:

قبر الغريب سقاك الرائح الغادي حقاً ظفرت بأشلاءِ أبن عبادِ
بالحلم بالعلم بالنعمى أذ أتصلتْ بالخبِ أن أجدبوا بالريَّ للصادي
بالطاعن عن الضارب الرامي أذا أقتتلوا بالموت أحمر بالضرغامة العادي
نعم هو الحق وافاني به قدرٌ من السماء فوافاني لميعادِ[٥٧]
ولم أكن قبل ذاك النعش أعلمه أن الجبال تهاوى فوق أعوادِ

أن أشعار المعتمد بن عباد وما فيها من نفس حزين مؤثر في المشاعر حتى ليكاد يبكيها ويستشعر قاريء أبياته ما قاساه وما عاناه هذا الملك في مدة أسره

المطلب الثاني : معاناته في السجن

وإذ تتراءى في مخيلة الملك الأسير الشاعر أطلال السعادة الماضية/ والقصور التي أستلبت منه، كل ذلك كان ممتزجاً بعبير الذكريات السابقة، وتلوح بين عينيه أيام المجد الزائل مع ما هوفيه من بؤس وشقاء (فيهتف في اعماقه الالم: هاو هو ذا العيد يذكرني بعرائس أيامي، وبتليد مجدي والاعياد التي كانت مدعاة للمسرات قد أنقلبت مبعثاً للحسرات)[٥٨]. فيقول في ذلك :

فيما مضى كنت بالأعياد مسروراً

فساءك العيد في أغمات مأسورا

ثم أن المعتمد يرى بناته في أثواب رثة بالية، قليلات ذات اليد يكسبن قوت يومهن بأن يغزلن للناس، فينفطر قلبه ألماً وحسرة أذ يقول :

ترى بناتك في الأطمار جائعةً

يغزلن للناس لا يملكن قطميراً

برزن نحوك للتسليم خاشعةً

أبصارهن حسيراتٍ مكاسيرا

بطأن في الطين والأقدامُ حافيةٌ

كأنها لم تطأ مسكا وكافورا

لاخذّ الا يشكو الجدبَ ظاهرهُ

وليس ألا مع الأنفاسي ممطورا

أفطرت في العيد لا عادت أساءته

فكان فطرُك للأكباد تفطيرا

قد كان دهرك أن تأمره ممتثلاً

فردّك الدهر منهيا ومأمورا(٢)

من بات بعدك في ملكٍ يسرٌّ به

فانما بات بالأحلام مغرورا[٥٩]

وفي السياق ذاته والأتجاه نفسه نجد المعتمد في أسره يخاطب (قيده مخاطبة العاقل طالباً أليه، وقد رواه من دمه وأشبعه من لحمه أن يرفق بالعظام فلا يسحقها تحطيما رحمة بطفله الصغير (ابي هاشم) الذي تهشم منه القلب[٦٠]، اذ ان فؤاد هذا الطفل الصغير لا يمكنه ان يتحمل مشهد أبيه وهو يرسف بتلك القيود الثقيلة ،ويطلب منه كذلك أن يرحم بناته اللواتي فيهن من تعقل ما وصل أليه حال الأب

الملك الأسير فلا تملك نفسها من البكاء جزعاً عليه، ومنهن من لا تعقل سوى الرضاعة أذ يقول:

قيدي أما تعلمني مُسلماً أبيت أن تشفق او ترحما
دمي شرابٌ لك واللحم قدْ أكلنه لا تهشم الأعظما[٦١]
يبصرني فيه أبو هاشم فينثني القلب وقد هشما
أرحم طفيلاً طائشاَ لبّه لم يخش أن يأتيك مسترحماً
وأرحم أخياتٍ له مثله جرّعتهن السمَّ والعلقما
منهن من يفهم شيئاً فقد خفنا عليه للبكاءِ العمى
والغيرُ لا يفهم شيئاً فما يفتح الا لرضاع فما[٦٢]

وتستثير أسراب القطا المحلقة في الفضاء مشاعر الحزن في نفس المعتمد، فترتفع حرارة العاطفة الأبوية عنده ذاكراً أبناءه الضعفاء، أذ لا يرى (الأب فرخاً من زغب الجناح الا ويذكر بنيه بضعفهم وليونة أعصابهم... فكيف بالأسير أذا ما رأى سرباً للطير يزحم الأرض مراحا، طرباً قاطعاً أجواز الفضاء ناعماُ بنشار ذهب السما... فيهيج في دخيلته شعور غامض يسرع بترجمته تنزيهاً له عن الحسد)[٦٣]، ويدعو لهذا السرب من القطا أن يحصل على الخير وكذلك (الرغبة بأشاعة الخير بالبقاء جناحاً مسبلاً على صغارها تعيش بالظل يغمرها نعيم قطر الطل في حين أن فراخه، فراخ الملك الشاعر لا ظل ولا طل تعتورهم أسباب الشقاء وتحيق بهم دواعي الأسى والبلاء[٦٤] وفي ذلك يقول:

بكيت الى سربِ القطا اذ مررْن بي سوارح لا سجنٌ يعوقُ ولا كبلُ
ولم تك – والله المعيذ حسادةُ ولكن حنيناً ان شكلي لها شكل
فأسرحُ لاشملي صديعٌ ولا الحشا وجيعٌ ولا عيناي يبكيهما ثكلُ
هنيئاً لها أن لم يفّرق جميعها ولا ذاق منها البعد من أهلها أهل[٦٥]
وان لم تبت مثلي تطيرُ قلوبها اذا أهتزَّ بابُ السجن أو صلصل القفل

على ان ما يذكره الشاعر من ترويعه من أهتزاز باب السجن أو صلصلة القفل لا يمنعه من تشوقه وتهيئة للقاء حتفه أذ يقول:

وماذاك مما يعتريني وانما وصفت الذي في جبلة الخلق من قبل
بنفسي الى لقيا الحمام تشوقٌ سواي يحب العيش في ساقه حجل
الأعصم الله القطا في فراخها فأن فراخي خانها الماء والظل(٦٦)

المطلب الثالث: رثاء أبنائه

وعندما يفقد المعتمد ابناءه ، ويحس بنيران الفقد تاكل قلب الاب الثاكل / فانه ينظم في رثاء ابنيه يزيد وابي الفتح قصائد ثلاثاً سأقف عليها متاملة مبينة اهميتها ، ذلك لان صدق العاطفة الابوية الانسانية ، وعمق الماساة تبدو بصورة اكثر وضوحاً ولقد حدا وضوح هذه الظاهرة في شعر المعتمد بابن بسام الى تشبيه شعره بشعر لنساء(٦٧).

وقد شبه د صلاح خالص بكاء المعتمد ونحيبه بـ (شعر الخنساء وليلى بنت طريف)(٦٨)، أذ أنه عندما ينصحه الناصحون بالصبر يجيب ان لا سبيل أليه مصراً على البكاء ومشبهاً ولديه بكوكبين هويا، فقامت زهر النجوم في مناحة عليهما كل ليلة، وظهر ذلك في وجه القمر، أذ أثر اللطم بادٍ على صفحته فيقول:

يقولون صبراً لا سبيل الى الصبر سأبكي وأبكي ما تطاول من عمري
هوى الكوكبان: الفتح ثم شقيقه يزيدٌ فهل عند الكواكب من خُبرِ
نرى زهرها في مأتم كل ليلةً تُخُمَّشُ لهفاً وسطه صفحة البدرِ
ينحن على نجمين، أثكلت ذا وذا وأصبر!!ما للقلب في الصبر من عذرِ
مدى الدهر فليبك الغمام مصابه
بصنويه يعذر في البكاء مدى الدهر(٦٩)
بعينِ سحاب واكف قطرُ دمعها
على كل حبر حلَّ فيه أخو القطر
وبرقِ ذكي النار حتى كأنما
يسعّر مما في فؤادي من الجمر(٧٠)

ويخاطب المعتمد ولديه يزيد وأبا الفتح مردداً أن الفتح قد فتح باب الرحمة له وأن يزيد زاد أجره عند أله. ثم أنه بعد رثائهما بأبيات عدة يشكو حاله فيقول أن أبنيه لو شاهدا أباهما على حاله المزرية في الأسر لأختارا التراب على الحياة أذ يقول:

أفتحُ ، لقد فتحت لي باب رحمةٍ
كما بيزيد، الله قد زاد في أجري

هوى بكما المقدار ولم أفتْ وأدعي وفياً! قدْنكصت الى الغدر
توليتما والسنَّ بعد صغيرةٌ ولم تلبث الأيام أن صغرت قدرت
توليتما حين أنتهت بكما العلا الى غاية كلُّ الى غايةٍ تجري[٧١]
فلو عدتما لأخترتما العود في الثرى
أذا أنتما أبصرتماني في الأسرِ
يعيدُ على سمعي الحديد نشيده
ثقيلاً فتبكي العين بالحبسّ والنقر

ويشير في أبياته اللاحقة الى بكاء أخواتهم الحزينات والأم الثكلى الحزينة مشبهاً دمعها بالقطر قائلاً:

معي الأخوات الهالكات عليكما
وأمَّكما الثكلى المضرَّمة الصدرِ
فتبكي بدمع ليس للقطر مثله
وتزجرها التقوى فتصغي الى الزجر
أبا خالدٍ اروثتني الحزن خالداً
ابا النضر مذ ودعت ودعني نضري
وقبلكما قد اودع القلب حسرةً
تجدَّدُ طول الدهر ثَكلُ أبي عمرو[٧٢]

وله قصيدة نظمها بعد أن سمع قمرية تنوحُ على غصن شجرة فأثار نواحها مشاعر شتى من الأسى والحزن فيقول بأنها بكت ولكن دون أزاقة الدمع ألا أنه أسبل عبراتٍ يقصر القطر عنها وهي تبكي واحداً أشجاها فقده ولكنه يبكي أكثر من واحدٍ من أبنائه الذين أختطفهم القدر منه فيقول:

بكت أنْ رأتْ الفين ضمها وكرُ
مساءً وقد أخنى على أليفها الدهرُ
بكت لم ترق دمعاً وأسلت عبرةً يقصرُ عنها القطرُ مهما همى القطر
وناحت وباحت وأستراحت بسرّها وما نطقت حرفاً يبوح به سرَّ
فما لي لا أبكي! أم القلب صخرةٌ وكم صخرةٍ في الأرض يجري بها نهرُ
بكت واحداً لم يشجها غير فقده وأبكي لألآفٍ عديدهم كثرُ
بنيّ صغيرٌ أو خليلٌ موافقٌ يمزق ذا قفزٍ، ويُغرق ذا بحرُ[٧٣]

ويشبه أبنيه بأنهما زين الزمان وأنهما نجمان داعياً بعد ذلك النجوم الزهر أن تبكيهما معه لأنهما جديران بالبكاء والحزن:

ونجمان زين للزمان أحتواهما بقرطبة النكداء أو رندة القبرُ
غدرْتُ أذاً ان ضنَّ جفني بقطرة وأن لؤمت نفسي فصاحبها الصبر
فقل للنجوم الزهر تبكيهما معي لمثلهما فلتحزن الأنجم الزهرُ(٧٤)

وتجدر بي الأشارة ها هنا الى ان الشعراء العرب المشارقة أشاروا الى نواح الحمامة في اشعارهم وأنها تذكرهم بأحبتهم، فعل سبيل المثال نذكر أبا فراس الحمداني الذي أشار الى بكاء الحمامة ولا سيما في قصيدته التي قالها في مدة أسره وهي أشهر من أن تعرف.

(وكما أسشاره نواح القمرية الحزين فأوحى له بقصيدته ألسالفة الذكر، فقد هزه الغيم وأثار شجونه وأحزانه، ورأى نفسه شبيهاً به، فهذا بسكب شأبيبه وهو يذرف الدمع ، وذاك يسطع برقه وهو يقاسي من نيران آلامه. ولكن شتان بينهما فهذا وابل تثيره الأحزان ونار مضطرمة دائمة، وذاك وابل لاألم يثيره ونار لا تكاد تبدو حتى تخبو)(٧٥)، اذ يقول:

ياغيم عيني أقوى منك تهتانا
أبكي لحزني وما حمّلتُ أحزاناً
ونار برقك تخبو أثر وقدتها ونارُ قلبي تبقى الدهر بركانا(٧٦)
نارٌ وماء صميم القلب أصلهما متى هوى القلب نيراناً وطوفانا

ثم يتحدث أبن عباد عن لوعته وحرقة كبده أذ بينما يحاول سلوة أبنه الفتح أذ يثوي يزيد قيزيد نيران قلبه حرقة فيقول:

بكيت قتحاً، فأذا ما رمت سلوته ثوى يزيد فزاد القلب نيرانا
يافلذتي كبدي يابى نقطعها
من وجدها يكما ما عشت سلوانا
لقد هوى بكما نجمان مارميا
الا من العلو بالالحاظ كيوانا(٧٧)

مؤكداً بعد هذا أن أستشهادهما خير معين له يوم الحشر فهو سيشغل ميزانه ويطمع بعد ذلك في ملاقاة وجه ربه متخلصاً من ذنوبه وأثامه التي أرتكبها راجياً بعد ذلك رحمة الربّ الجليل وأحسانه وغفرانه قائلاً:

مخففٌ عن فؤادي أن ثكلكما مثقلٌ لي يومَ الحشر ميزانا
يا فتحُ قد فتحت تلك الشهادة لي باب الطماعة في لقياك جذلانا
ويايزيد لقد زاد الرجا بكما ان يشفع الله بالحسان أحسانا
كما شفعت أخاك الفتح تنبعه لقاكما الله غفرانا ورضوانا(٧٨)

على ان حرارة العاطفة الأبوية تبدو في اوج تألقها حين يرسل سلاماً مليئاً بالأسى زاخراً بالعبرات والنحيب قائلاً:

مني السلام ومن أمَّ مفجعةٍ عليكما أبداً مثنىً ووحدانا
أبكي وتبكي ونبكي غيرنا أسفاً لدى التذكر نسوانا وولدانا

وله في رثاء أبن له يدعى سعداً قطعة يقول فيها:

اذا كان قد اودى الزمان بمثله
ولم يبق في عود له طمع بعدُ
فلا بترت بترٌ ولا قنيت قناً
ولا زأرت أسدٌ ولا صهلت جُرْدُ
ولا زال ملذوعاً على سيدٍ حشاً
ولا أنفكَّ ملطوما على ملك خدُّ(٧٩)

ان ازدحام الذكريات الأليمة وفقدان أبنائه وفقده زوجه (اعتماد) وأنكسار بنات الحزينات كل ذلك كان مدعاة لأن يولد في نفس المعتمد موجات متتابعة من الأسى المحض والحزن الدفين والألم الموجع الذي جسده في قصائده التي ذكرت والتي بثّ فيها نفثات حارة من دفق العاطفة الأبوية التي يمتلكها.

دراسة موازنة :

يبدو البناء الفني لقصيدة المعتمد متمسكاً إذ نهج في قصائده أسلوباً نشعر من خلاله بالوحدة الفنية والتلاحم بين أجزاء القصيدة وخاصة في قصائده التي سبقت الأشارة اليها وأقصد بها تلك التي قالها بُعيدَ أسره ففي قصيدته التي يقول فيها:

١. لما تماسكت الدمــوع وتنبه القلبُ الصديــع
٢. قالوا: الخضوعُ سياسـةٌ فليبدُ منك لهم خضــوع
٣. والذّ من طعم الخضــو ع على فمي السمَّ النقيــعُ
٤. أن يسلب القومُ العــدا ملكي وتسلمني الجمــوعُ
٥. فالقلب بين ضلوعــه لم تسلم القلب الضلــوعُ
٦. لم أستلب شرف الطبــا ع أيسلب ألشرف الرفيــع
٧. قد رمت يوم نزالهــم ألا تحصنني الــدروعُ
٨. وبرزت ليس سوى القمي ص على الحشاشيٌ دفوعُ
٩. وبذلت نفسي كي تسيلَ اذا يسيل بها النجيــعُ
١٠. أجلي تأخر لم يكــن بهواي ذلي والخشــوعُ
١١. ماسرتُ قط الى القتــا لِ وكان من أملي الرجوع
١٢. شيمُ الألى أنا منهــم والأصل تتبعه الفــروعُ(٨٠)

فقارئ القصيدة السابقة يرى أن المعتمد أبتدأ بداية حسن، أذ مهدّ لها تمهيداً جيداً في مطلع القصيدة ثم عرض مستطرداً لحالته التي هو فيها مفصلاً القول في رفضه الذل والخضوع لأعدائه مبيناً أنه كان يبرز لقتالهم برباطه جأش وشجاعة، وأنه أجتهد لبذل نفسه دفاعاً عن قومه ألا أن أجله تأخر وليس الأمر بيده.

وقد كرر المعتمد لفظة (الخضوع) ثلاث مرات في بيتين للدلالة على عدم رضاه الأستسلام والخضوع، حتى اذا أنتهى البيت الأخير الذي يقول فيه:

شيم الأولى أنا منهم والأصل تتبعه الفروعُ

سيجد قارئ قصيدته أنه سار على ما سماه النقاد: (التخلص من الخروج) وهو أخراج ما في قصيدته بما بعده من غرض حتى يعود كالجسر الطبيعي يوصل أليه وينتهي عنده(٨١)،عند ذاك نحسّ أن شاعرنا قد وفق في رسم خاتمة قصيدته، إذ نشعر بأنه أستفرغ كل ما يريد قوله في هذه القصيدة مبيناً أن نهجه هذا أنما هو منهج أسلافه أّ هو فرع تابع لأصله.

وقدأشار د. عمر الدقاق الى ان في القصيدة أسلوباً قصصياً[٨٢].وأما دلالة الفاظ المعتمد التي أستعملها في أشعاره التي قالها بعد أسره، فقد جاءت مليئة بالمفردات التي تحمل عاطفته الجياشة وهي تدلل على الحالة التي وصل أليها ففي قصيدته التي مطلعها:

فيما مضى كنت بالأعياد مسروراً فساءك العيد في أغمات مأسورا

فالقصيدة تزخر بالفاظ : (فساءك، جائعة، خاشعة، حسيرات، مكاسيرا، مأسورا، حافية، الجدب) وهذه الألفاظ مما لا شك فيه تدل خير دلالة على الحالة النفسية والعاطفية للشاعر.

وبعد فقده لأبنائه جاءت قصائد المعتمد في رثائهم مليئة بألفاظ البكاء والصبر والرثاء وما يدل عليه فقد زخرت الفاظه بكلمات صبراً، الصبر، سأبكي، أبكي، مأتم، ينخين، فليبك، دمع)، وهذه الألفاظ وما يشابهها تدلل على عمق المأساة المؤثرة في نفسه وهي فضلاً عن فقده ملكه وثروته وعزه وجاهه وأنتهاء أمره الى الوقوع في الأسر ومافيه من ذل وهوان، فقدانه لأبنائه وقد كانوا قرة عينه وسلوة حياته.

وأما الصورة الفنية عند المعتمد فقد أوضحها وجسدها في أشعاره التي يذكر فيها البؤس والفقر اللذين ظهر على وجوه بناته وقد جئن لتهنئته يوم العيد، فقد بدت الصورة واضحة في ذكره لهذه الحال أذ يقول:

ترى بناتك في الأطمار جائعةً يغزلن للناس لا يملكن قطميرا[٨٣]

وكذا في قوله:

يطأن في الطين والأقدام حافية كأنها لم تطأ مسكاً وكافورا[٨٤]

فمن يقرأ البيتين الآنفي الذكر تتراءى في مخيلته صورة بنات الشاعر، وهن في ثياب بالية عليهن آثار الفقر يمشين كسيرات البال حافيات الأقدام، ويطأن الطين بأرجلهن، في تصويره لهذا المشهد يكون المعتمد قد افرغ شاعريته مبيناً بؤس الحال التي وصل أليها.

وقد رسم المعتمد صورة حزينة في تصويره مشهد قمرية تنوح على غصن شجرة ووازن بين حالته لتي هو فيها وبين هذه القمرية، فجاءت الصورة بديعة حزينة تنمَّ عمّا في نفس الشاعر من أسً وألم وذلك في قوله:

بكت أن رأت الفين ضمهما وكرُ مساء وقد أخنى على ألفها الدهرُ

بكت لم ترق دمعاً وأسبلتُ عبرةً يقصرُ عنها القطر مهما همى القطرُ

*فما لي لا أبكي أم القلبُ صخرةٌ؟ وكم صخرةٍ في الأرض يجري بها نهرُ

وأكثر المعتمد من أستعمال أساليب التشبه وخاصة في تشبيه أبنائه بالكواكب أذ شبه أبناءه يهوي الكواكب في قوله:

هوى الكوكبان الفتح ثم شقيقه يزيدٌ فهل عند الكواكب من خبرِ(٨٥)

وشبههما بأنهما نجمان في قوله:

ونجمان زين للزمان أحتواهما بقرطبة النكداء أو رندةَ القبرُ(٨٦)

على أنه أستعار للسحابة دمعاً فجعلها تبكي لفقد أبنائه في قوله:

بعينِ سحابٍ واكفٍ قطرُ دمعها على كل قبر حلّ فيه أخو القطرِ(٨٧)

كما وأكثر من أستعماله المحسنات البديعية من جناس وطباق من مثل قوله:

عاد بشري الذي عهدت به عبوسا

شغلتني الأشجان عن أفراحي(٨٨)

إذ طابق بين (البشر) و(العبوس) وبين (الأشجان والأفراح) وجانس في أبيات أخرى جناساً ناقصاً بين مأسورٍ ، ومسرورا في قوله:

فيما مضى كنت بالأعياد مسروراً

فساءك العيد في أغمات مأسورا

وأكثر من تكرار كلمات، بكى، بكت، بكى الوحيد في قوله:

بكى المبارك في أثر أبن عباد بكى على أثر غزلانِ وأسادِ

بكت ثرياه لا غمت كواكبها بمثل نوء الثريا الرائح الغادي

بكى الوحيد بكى الزاهي وقبته والنهرُ والتاج كلٌّ ذله بادي(٨٩)

ومما لا شك فيه أن تكرار المعتمد لهذه الألفاظ وما يراد منها تعبر أصدق تعبير عما في نفس هذا الملك من حسرة وألم ممضّ دخين لما آل إليه أمره.

أراك عصيَّ الدمع شميتك الصبرُ

أما للهوى نهيٌ عليك ولا أمرُ(٩٠)

بدأ هذه القصيدة وكما أشار د. أحمد بدوي بدأها متغزلاً ثم أنتقل بعد ذلك الغزل الى الفخر، وقد كان مثالياً في حبه و هو (يمتّ بسبب وثيق الى هذه المثالية فهو فيّ لها برغم أصغائها الى الواشين، يجفو داره في سبيل حبه لدارها بل يحارب قومه الأعزاء في سبيل هواها وهو خاضع لحبّها، يقبل راضياً أن يتوب

من ذنب لم تجنه يداه ثابت على الحب لا يستفزه الطيش ولا يدفعه الى النفرة والأعراض)[٩١].

لقد أجاد ابو فراس توظيف الظواهر البلاغية المعروفة من طباق وجناس ومقابلة في شعره فقد أستعمل الطباق في قوله:

ولئن لقين الحزن فيــ ك فقد لقيت بك السرورا

فقد طابق بين كلمتي (الحزن) (والسرور).

وطابق في مطلع في مطلع قصديته الرائية المشهورة التي مطلعها:

أراك عصيَّ الدمع شميتك الصبرُ أما للهوى نهيٌ عليك ولا أمرُ

فقد طابق بين لفظتي (نهي ، أمر)

وطابق بين لفظتي برٌّ وبحر في قوله :

ولكن اذا حُمّ القضاءُ على أمريءٍ

فليس له برٌ بقيه ولا بحر

وخابل بين عبارتين هما قوله:

فاظمأ حتى ترتوي البيض والقنا

وأسغب حتى يشبع الذئب والنسرُ

وأحسن أستعمال التكرار وبخاصة في قصائده التي وجهها الى أمه في قوله:

يا أمتا لا تحزني وثقي بفضل الله فيهّ

يا أمتا لا تيأسي لله الطاطفٌ خفّيه

وكذا في قصيدته (أيا أم الأسير) أذ كررّ هذه اللفظة أربع مرات في القيدة ولما كانت ولما كانت أمه قد توفيت وهو في الأسر فقد بدت معاناته واضحة في تكراره للفظة (ليبكِ) وهي تدلل بلا شك على مدى تأثر الشاعر بفقدان والدته.

أستعماله لساليب الطلب من نداء وأستفهام وغيرها.

الخاتمة

وبعد تلك الرحلة مع هذين الشاعرين الأخيرين يمكن أن نخرج بالنتائج الآتية:

١. كان ابو فراس الحمداني وهو في أسره مفتخراً صابراً واثقاً بنفسه / مؤمناً بقضاء الله وقدره.
٢. أما المعتمد فقد كان ؤمناً بقضاء الله ألا أنه بدا بائساً، حزيناً أخذت منه مصائب الشكل كثيراً من صحته ونفسيته.
٣. لم تختلف قصائد الشعرين في ألتزام الوحدة الفنية أذ كانت قصائدهما نسيجاً واحداً من بداية القيدة وحتى خاتمتها.

وقد أكثر فيها المعتمد من التشبيهات والمحسنات البديعية واللفظية وأستلهم ابو فراس الحمداني مواقف وعبر وعظات من تراث الأمة الأسلامية الخالد ومن مواقف الصحابة للتأسي بهم على ما أصابه من ألم الأسر ومرارة السجن.

٤. تميز ابو فراس الحمداني يعقد حوار شعري بينه وبين أصحابه فضلاً عن عقد حوار بينه وبين الحمامة ووازن في هذا الحوار بين سوء حالته وبين الحمامة الطليقة، فهو أسير وهي طليقة وهو مناحك وهي تنوح على غصنها. وقد أبدع في هذه الموازنة اللطيفة التي ذلّت على قدرته وشاعريته.

المصادر

١.تاريخ الأدب الأندلسي، عصر الطوائف والمرابطين، د. أحسان عباس، ط دار الثقافة بيروت، ١٩٦٢.
٢.تاريخ الأدب العربي في الأعصر العباسية د. عمر فروخ، ط دار العلم للملايين، بيروت ١٩٨٠.
٣.تأريخ الفكر الأندلسي، أنخل جنثالث بالنثيا، ترجمة د.حسين مؤنس، د.ت ، د.م.
٤.ديوان ابي فراس الحمداني، د. سامي الدهان، ط بيروت ، ١٩٤٤.
٥.ديوان المعتمد بن عباد، أحمد أحمد بدوي وحامد عبد المجيد، ط المطبعة الأميرية ، القاهرة ، ١٩٥١.
٦.الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لأبن بسام السنتريني، القسم الثاني المجلد الأول د. أحسان عباس ، ط دار الثقافة بيروت، ١٩٧٨.
٧.شاعر بني حمدان ، أحمد أحمد بدوي، ط حلوان/ ١٩٤٩.
٨.فنون الشعر العربي في مجتمع لحمدانيين، د. مصطفى الشكعه، ط الأنجلو المصرية ١٩٥٨.
٩.في النقد الدبي عند العرب. د. محمد طاهر درويش، ط دار المعارف، مصر، ١٩٧٩.
١٠. المعتمد بن عباد، دراسة أدبية تاريخية د. صلاح خالص، ط شركة بغداد ١٩٥٨.
١١. المعتمد بن عباد ، الملك الجواد والشعر المرزّأ د. عبد الوهاب عزام ط دار المعارف ، مصر، د. ت
١٢. المعتمد بن عباد، د. نديم مرعشلي ، دار الكتاب العربي، د.ت
١٣. ملامح الشعر الأندلسي، د عمر الدقاق، ط دار الشروق العربي، بيروت، د.ت.
١٤. النقد التطبيقي والموازنات د.محمد الصادق عفيفي، مؤسسة الخانجي، مصر القاهرة ، ١٩٧٨.
١٥. يتيمة الدهر للثعالبي د. محمد محي الدين عبد الحميد، ط. دار الفكر بيروت، ١٩٧٣

١٦. لغة أبي فراس الشعرية:

جاءت لغة أبي فراس الشعرية وألفاظ مليئة بألفاظ الحرب والاسر فضلاً عن مفردات الفخر والأعتداد بنفسه إذ جاءت الفاظ مثل: السير، الأسر، كتيبة، صبور،

جرّار، طليق، الحزن ، فتح، النصر، غارة، صوارم، البيض، ألقنا. وهذه كلها تدلّل على لغة هذا الشاعر الفارس أذ لا يمكن أن نتخيل شعر أبي فراس الحمداني خالياً من هذه الألفاظ.

ينبغي لنا الأشارة الى ان الحمداني وظف التراث العربي الأسلامي توظيفاً جيداً أّ أشار الى ذلك في قصيدته التي وجهها ألى أمه يدعوها فيه الى الصبر الجميل فيذكرها بـ صفية بنت عبد المطلب رضي الله عنها عمة النبي صلى الله عليه وسلم يوم قتل الحمزة رضي الله عنه في موقعه أحد فصبرت، ثم يذكرها بأسماء بنت ابي بكر رضي الله عنهما الملقبة بـ ذات النطاقين وصبرها على فقد ولدها عبد الله بن الزبير وما يمكن أن يحصل عليه الصابرون من أجر كريم عند الله سبحانه وتعالى.

لم يختلف ابو فراس الحمداني عن سابقيه من شعراء العربية في أنه أتبع النظام التقليدي للقصيدة العربية أّ أنه وفي أحدى أشهر قصائده وأخص بها الرائية المشهورة:

الهوامش

(١) ينظر : وفيات الأعيان لأبن خلكان : ٥٨/٢ ، د.أحسان عباس ط دار الثقافة بيروت /١٩٦٩.
(٢) يتيمة الدهر للثعالبي ٢٢/١-٣٥ تح محمد محي الدين عبد الحميد/ ط دار الفكر، بيروت.
(٣) ينظر تاريخ الأدب العربي في الأعصر العباسية د.عمر فورخ ص٤٩٥ ط دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٨٠.
(٤) م.ن ص٤٩٥-٤٩٦. ينظر : تاريخ الأدب العربي، عصر الدول و الأمارات الشام. د. شوقي ضيف ص٢٢٤.
(٥) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لأبن بسام الشنتريني القسم الثاني الأول ص١٣ د.أحسان عباس، ط دار الثقافة بيروت ١٩٧٨.
(٦) النقد التطبيقي ص٢٢٩.
(٧) ديوان ابي فراس د.سامي الدهان ٢٥/١/ط بيروت/ ١٩٤٤.
(٨) ديوانه ٢٠٧/١.
(٩) ديوانه : ٢٠٩/١.
(١٠) م .ن
(١١) م .ن
(١٢) ديوانه : ٢١٠/١.
(١٣) فنون الشعر في مجتمع الحمدانيين د.مصطفى الشكعه ص١٨٥ ط الأنجلو المصرية ١٩٥٨
(١٤) م . ن
(١٥) م. ن : ٢١٢/١.
(١٦) ديوانه : ٢١٢/١
(١٧) م. ن
(*) غمر : جاهل المنجد مادة (غمر) .
(١٨) ديوانه ٢١٣/١
(١٩) ديوانه ٢١٣/١
(٢٠) م. ن
(٢١) م . ن
(٢٢) فنون الشعر في مجتمع الحمدانيين د.مصطفى الشكعه ص١٨٩.
(٢٣) ينظر فنون الشعر في مجتمع الحمدانيين : ص١٨٩.
(٢٤) ديوانه ٣٢٥/٢.

(٢٥) ديوانه : ٣٢٥/٢.
(٢٦) ديوانه : ٤٣٣/٢.
(٢٧) م . ن :
(٢٨) ديوانه : ٤٣٣/٢.
(٢٩) ديوانه :٣١٦/١
(٣٠) ديوانه: ١/ ٣١٧.
(٣١) م. ن
(٣٢) ديوانه ٣١٧/١
(٣٣) م ن ٣١٨/١
(٣٤) م. ن .
(٣٥) ديوانه : ٢١٧/١
(٣٦) ديوانه : ٢١٧/١.
(٣٧) م. ن : ٢١٨/١.
(٣٨) ديوانه : ٢١٨/١.
(٣٩) ديوانه ٢٠٦/١.
(٤٠) ديوانه ٢٠٧/١.
(٤١) م.ن :
(٤٢) ديوانه ٢٦٨/٢
(٤٣) ديوانه : ٢٦٨/٢.
(٤٤) م. ن.
(٤٥) ديوانه : ٣٧٣/٢.
(٤٦) م . ن.
(٤٧) م. ن .
(٤٨) ديوانه : ٨٥/١.
(٤٩) ديوان المعتمد أحمد أحمد بدوي حامد عبد المجيد ص٨٨، ط المطبعة الأميرية القاهرة ١٩٥١.
(٥٠) ديوانه ص٨٨.
(٥١) ملامح الشعر الأندلسي: عمر الدقاق ، ط دار الشرق العربي بيروت د.ت . ص ١٧٢
(٥٢) م . ن . ص١٧٢.
(٥٣) ديوان المعتمد : ص٩٠.
(٥٤) ديوانه : ص٩٥.

(٥٥) ديوانه : ص٩٨.
(٥٦) ديوانه ص٩٨.
(٥٧) ديوانه ص٩٦.
(٥٨) المعتمد بن عباد نديم مرعشلي ص٩٠، وينظر الأدب الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين د أحسان عباس ص١٨٩/ وينظر تاريخ الفكر الأندلسي جنثالث بالنثيا ص١٠٣.
(٥٩) ديوان المعتمد :١٠١.
(٦٠) ديوان المعتمد : ص١٠١.
(٦١) ديوان المعتمد : ص١١٢
(٦٢) ديوان المعتمد : ص١١٢.
(٦٣) المعتمد بن عباد: نديم مرعشلي، ط دار الكتاب العربي، د .ت ص٩٣، وينظر المعتممد بن عباد، الملك الجواد الشجاع والشاعر المرزّأ ص٦١. د. عبد الوهاب عزام، ط دار المعارف، مصر، د .ت
(٦٤) المعتمد بن عباد نديم مرعشلي ص٩١.
(٦٥) ديوان المعتمد ص١١٠.
(٦٦) ديوان المعتمد ص١١٠.
(٦٧) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة المجلد الثاني القسم الول ص١٣ وما بعدها.
(٦٨) المعتمد بن عباد . د صلاح خالص دراسة أدبية تاريخية ط شركة بغداد ١٩٥٨ ص١٩٢.
(٦٩) ديوان المعتمد :ص١٠٥
(٧٠) دبوانه ص١٠٦.
(٧١) ديوانه ص١٠٦.
(٧٢) ديوانه ١٠٦.
(٧٣) ديوانه: ص٦٨.
(٧٤) ديوانه ص٦٨.
(٧٥) المعتممد بن عباد صلاح خاص ص١٩٤.
(٧٦) ديوانه :ص٦٩.
(٧٧) المصدر نفسه.
(٧٨) المصدر نفسه.
(٧٩) ديوانه ص٦٩.
(٨٠) ديوانه ص٨٨-٨٩.

(٨١) ينظر في النقد الأدبي عند العرب، د. محمد طاهر درويش ص٢٩٨. ط دار المعارف مصر ١٩٧٩.
(٨٢) ينظر ملامح الشعر الأندلسي د عمر الدقاق ص١٧٢، ط دار الشروق بيروت د.ت.
(٨٣) ديوانه: ١٠١.
(٨٤) م. ن
(*) نعتقد أن الشاعر لو قال : فلم لا أبكي لكان أجود.
(٨٥) ديوانه : ص١٠٥.
(٨٦) ديوانه ص٦٨.
(٨٧) م. ن ص١٠٦.
(٨٨) ديوانه ص٦٨.
(٨٩) ديوانه : ص٩٥.
(٩٠) ينظر شاعر بني حمدان: د. أحمد أحمد بدوي، ص٩٣ ط حلوان ١٩٤٩ د.م
(٩١) شاعر بني حمدان ص ٩٤.